الحتمية التنويرية

مدخل التزامن الحضاري

ياسر جاسم قاسم



مسبقة انه يستند إِلَىٰ معرفة، ولكن هَذِهِ المعرفة مجزأة دوما ومؤقتة انها مجزأة لأنـه مـن غـير الممكن وجود نظرية شاملة للانسان والتاريخ وهي مؤقتة، لان البراكسيس ذاته يخلق عَـلَىٰ الدوام معرفة جديدة ذلك لانه يجعل العالم يتكلم بلغـة هِـيَ فِي ان واحـد فريـدة وكونيـة، فالاعتماد عَلَىٰ مقتضـيات مفهوم البراكسيس تضمن حتما وحسب المفهـوم الكورنيليـوسي ان عملية بناء المجتمع وفق الاساس النظري مهم جدا بـل ان الثـورة المجتمعيـة يجـب ان تسبقها نظرية مجتمعية مستقلة ومنطلقـة مـن رحـم المجتمـع، وعنـدما نقـول: ان مفهـوم البراكسيس مفهوم مؤقت فهذا يضمن بالنتيجـة ان المعرفـة بتجـدد مسـتمر ولـيس مجـرد وجود ثوابت داخل المجتمعات بل ان التغيير هو اساس للتغيير المجتمعي.

وبالرجوع إِلَىٰ المشـروع الثوري لإنقاذ المجتمعات يتبين ان مناقشـة المشـــروع الثـوري بالذات، والذي هو بالتحديد اعادة تنظيم واعادة توجيه المجتمع من خلال الفعل المستقل بذاته للبشـر وهنا فان للثورة منطلق واسباب اجتماعية وحتمية مهمة فهيغل الالماني يقول: ان الثورة ظاهرة اجتماعية شاذة وناشزة عن السير العام للمجتمـع الانسـاني امـا الكاتـب الانكليزي جون لوك فقد اعتبر الثورة ظاهرة اجتماعية طبيعية ومنسجمة مع السـير العـام للمجتمع الانساني.

اي ان الثورة عمل مشـروع يحق للشعب بل يجب عليه احيانا ان يقوم به للقضـاء عَـلَىٰ الحكومة الَّتِي لا تمثله والتي تنكبت عن السبيل السوي فِي الحكم، اما «كارل ماركس» فقد ذهب إِلَىٰ ابعد من ذلك فقد اعتبر الثورة القانون العام لسير الطبيعـة والمجتمـع والوسـيلة الوحيدة لحل مشكلاته جميعها، وفي مقدمتها الجانب الاقتصادي الَّذِي يستند اليـه وينبثـق عنه نظـام المجتمـع فِي اوجهـه الاخـرىٰ السياسـية والاخلاقيـة والاجتماعيـة والفلسـفية واضـرابها.

وهنا للدكتور نوري جعفر راي فِي اسباب الثورة حيث يقول ما نصه من كتابه «الثـورة مقدماتها ونتائجه»: «ان من اسباب الثورة تمتع الحاكمين بجميع مظاهر الترف والجـاه مـن الناحيتين المادية والمعنوية وبالقدر الَّذِي تسـمح لهـم بـه امكانيـات العصـــر خاصـة مـن اصحاب المناصب المركزة والاعتماد عَلَىٰ التناقض من الناحية العمليـة فِي الانتخابـات وفي غيرها الامر الَّذِي يؤدي إِلَىٰ احداث القلق السياسي وعدم الاستقرار وايهـام الشـعب بـان

التقدم الحاصل نتيجة لجهود الحكومة علما ان الشعب لا يعرف شيئا عن سياستها من الناحيتين الداخلية والخارجية»[1] وهنا لابد من الوقوف عَلَىٰ الآراء التربوية فِي كتاب الدكتور نوري جعفر اعلاه وعلاقتها بالمواضيع السياسية الَّتِي طرحها والتي من الممكن تلخيصها بالشكل التالي:

١. ايمانه العميق فِي وجوب بناء المجتمع تربويا من خلال قيادته الَّتِي تحكمه فيقول «الدكتور نوري جعفر»: ومن مفارقات التاريخ الكبرىٰ فِي عهدنا الملكي البائد ان التشريعات الَّتِي تسن لمكافحة البغاء والخمر والرشوة والتحايل عَلَىٰ القانون والسرقة والمخالفة للآداب العامة وما شاكلها تحتمي بها الفئة الحاكمة فتطلق لشهواتها العنان فِي مجال الموبقات ولا تطبق تلك القوانين الا فِي الحالات التافهة وعلىٰ الافراد العزل من ابناء الشعب.

٢. ضرورة اعطاء دور فاعل للتعليم بوصفه وسيلة لتوصيل العلم والتربية يقول د. نوري جعفر: وضعت الحكومة مقاليد الامور التعليمية العامة بيد اشخاص برهنوا عَلَىٰ حذق منقطع النظير لأساليب الدس والفساد.

٣. أكد الدكتور نوري جعفر عَلَىٰ اهمية تنمية الفكر العراقي للوصول إِلَىٰ حالات الابداع والابتكار فيقول الدكتور نوري جعفر لقد عاشت الفئة الحاكمة العثمانية والعراقية عَلَىٰ حساب المجتمع العراقي وسعت جهد امكانها عَلَىٰ طمس أكبر كمية من الامكانيات الفكرية الموجودة لدىٰ أكبر عدد ممكن من ابناء الشعب فِي أكبر مقدار ممكن من الحالات ولم تشجع الفكر العراقي عَلَىٰ الابداع»[2].

٤. ايمانه بضرورة اهتمام الساسة بالروح والجسد فِي تعاملهم مع الشعب. يقول «الدكتور نوري جعفر»: وما دام الهدف الرئيس للفئة الحاكمة هو محافظتها عَلَىٰ كيانها ومصالحها فإنها تتلون بالشكل الَّذِي تحافظ فيه عَلَىٰ تلك المصالح وتكون اخلاقها كما يقول ميكافيللي مزيجا من الانسانية والحيوانية.

---

١. د.نوري جعفر، الثورة مقدماتها ونتائجها،بلا تاريخ، ص١٨-١٩

٢. نفس المصدر اعلاه ص٩١.

٥. اهتم الدكتور نوري جعفر بان يتعامل الحكام مع الشعب بأسلوب تربوي يقول: فاستعمال الشدة لا يحل من نفسه مشكلات المجتمع ولا يزيل عوامل التذمر والامتعاض وانما يعقدها.

٦. ان يكون للسلطة الحاكمة مبدا سياسي أَوْ ديني أَوْ فلسفي خاص ويتعامل بوحي منه فِي جميع الظروف والاحوال لكن الدكتور نوري ينقل رأيا عن ميكافيللي: من أبرز صفات الحاكم العاقل الفاسد هو انتفاء وجود عقيدة من اي نوع كانت لديه اللهم الا عقيدة اللاعقيدة ذلك لان اعتناق العقيدة والسير عَلَىٰ وفق مستلزماتها لا يتفق دائما ومصلحة الحاكم.

٧. تأكيد الدكتور نوري جعفر انه لا يجوز ان ينكر المرء ذاته أَوْ يتجرد عن مصالحه الخاصة شريطة ان يتم تحقيقها ضمن إطار المصلحة العامة لا خارجها أَوْ عَلَىٰ حسابها وهذا مرتبط تماما بمفهوم التبادل الاجتماعي.

وتنطلق هَذِهِ النظرية فِي تفسيرها للسلوك الاجتماعي من قضية اساسية مفادها: ان الانسان يبحث عن اللذة ويتجنب الالم ومن هَذَا المنطلق اخذت تنظر إِلَىٰ الحياة الاجتماعية عَلَىٰ انها شبكة من العلاقات الاجتماعية يؤدي فيها الانسان دورا معتمدا عَلَىٰ التكاليف والمكآفات.

٨. ضرورة الحذر من استخدام السلطة الفاسدة.

وقد بحثنا هَذِهِ الافكار بمجملها فِي كتابنا: نوري جعفر رجل النهضة والاصلاح....

مما ورد اعلاه يتبين الفعل المجتمعي للثورة حيث ان الثورات اذا استندت لنظريات مؤسسة وفق منهجيات عالية امكن وعلىٰ وجه الخصوص والعموم اسناد المجتمع إِلَىٰ اسس حداثية وذات منهجية عالية. ان المجتمع اذا اراد التحرر فعليه ان يقف بوجه كل السياسات الظالمة الَّتِي تطال ابناء المجتمع نتيجة تصرفات لا مسؤولة تقوم بها فئات ظالمة لنفسها وللآخرين، ولميكافيللي رأي فِي هَذِهِ المسالة «حيث وقف «ماكيفيللي» بشدة ضد سياسة الاقطاعيين والبابوية لأنه اعتبرهما من اهم العراقيل الَّتِي تحول دون تقدم عملية التوحيد السياسي واعتبر التعاليم الكنسية بمثابة عبء يحول دون الابداع النشط للانسان كما انتقد ماكيافيللي بشدة النظام العسكري القائم فِي البلاد لاعتماده عَلَىٰ المرتزقة الوقتيين الَّذِينَ وصفهم كحثالات المجتمع لا يهمهم سوىٰ النهب فدعىٰ إِلَىٰ «تأسيس جيش منظم